لخدمة العسكرية . والباقي بقي في المستشفى لاستئناف المعالجة وعمل العمليات الجراحية وعددهم يزيد على ٥٠٠

وكثيراً ما اشرنا في اعداد المقتطف الماضية الى أكل لحم الخيل في المانيا . ولا يبعد ان يشيع اكلهُ فيها اذا ثبت بعد الفحص الدقيق انهُ كثير الغذاء سهل الهضم ليس فيهِ ما يضرّ آكليهِ وان امتناع الناس عامة عن اكلهِ الى الآن انما كان عملاً بفريضة دينية او اجابة لداعٍ آخر لا دخل للضرر فيهِ . واذا عمَّ اكل لحم الخيل بلداً مثل المانيا فليس ثمت ما يمنع اقتباس البلاد الاخرى لهُ واتخاذ هذا اللحم قواماً للطعام كلحم المواشي

وللخيل فائدة اخرى كبيرة غير الفوائد المتقدمة فانهم يستخرجون من دمها انواع المصل التي تستعمل لمداواة بعض الامراض او الوقاية منها كالدفتيريا والتتانوس وترياقاً لسمّ الافاعي

مصر منذ تسعين سنة

للسائح الفرنسوي جيراردي نرفال

(٥)

— بلاد الغرائب —

كنت اصعد احياناً الى سطح منزلي في آخر حارة الاقباط لامتع نظري بجمال الطبيعة فاذا اماي عند شروق الشمس سهول المطرية ومروج عين شمس الزمردية وعن يميني جبال المقطم الجرداء وتحت صفحهِ مدينة الاموات بأعمدتها وقبابها العالية مدفن حكام مصر وخلفائها وسلاطينها منذ الف عام . وفي عين شمس مسلّة القراعنة الاثر الوحيد الباقي من تلك المدينة البائدة كأنها وهي بين تلك المروج الخضراء وحولها غابات النخيل والجميز حارسة للاهرام ولمدافن الالهة والملوك منذ اربعين قرناً

وكثيراً ما كنت اقضي على تلك الحال ساعة من الزمان امتع فيها نظري بجمال هذه المناظر وانا غارق في بحر الافكار وعالم الخيال . وفي صباح احد الايام رأيت الجو قاتماً فرفعت رأسي واذا الجراد ملأ الافق وكان عبد الله ترجماني واقفاً بالقرب مني فحرك قصبة غليونهِ في الهواء مراراً فسقط بين اقدامنا بعض جرادات وهي كبيرة الحجم . وقال لي عبدالله ان الجراد آفة من آفات مصر يأكل الزرع و يفني الضرع و يخشى من حدوث مجاعة

في هذه السنة . ثم سألني ألا تأكل الجراد فاظهرت التقزز والاشمئزاز . فقال يطيب اكلهُ اذا جُرِّد من رأسهِ واجنحتهِ وشوي بالنار او قلي بالسمن ومو طعام شهي عند العربان وكثيراً ما يملحونهُ و يقددونهُ ويحفظونهُ للشتاء و يستطاب اكلهُ مع خبز الذرة . وعلى ذكر الطعام قلت لهُ لما كنت قد تركت الفندق واتخذت منزلاً خاصًّا ألا يمكنك ان تطبخ لي طعامي ولو على الطريقة المصرية لانهُ يصعب عليَّ ان اذهب كل يوم مرتين في الحر الى فندق دومرج . فاظهر الانفة والترفع وقال اعلم يا مسيو اني لست طباخًا بل ترجمان ان شئت فاطلب لنفسك غيري . فقلت ألا يعرف صاحبك البربري ابرهيم الطبخ . اجاب كلاَّ لان وظيفتهُ حراسة باب منزلك فقط . فقلت لهُ وما العمل اذاً ؟ فالسوق ملآنة بقولاً ولحمًا وسمكاً فيجب ان آكل في منزلي فأتني بطباخ . اجاب قلما تجد طباخًا افرنجيًّا الاَّ في سرايات الامراء والوزراء ومرتبهُ لا يقل عن ستمائة غرش . فقلت اريد طباخًا مصريًّا يطبخ لي طعامًا بلديًّا . اجاب ربما تجدهُ عند صاحبك الخواجا جان

— الخواجا جان —

جان رجل فرنسوي المولد صاحب خمارة في حارة الاقباط يختلف اليها كثيرون من الاروام والمالطيين والاقباط . وهو من بقايا جنود الحملة الفرنسوية لم يشأ ان يرجع الى بلادهِ بعد ان تقيَّد في خدمة احد امراء المماليك فاصبح وطنيًّا مصريًّا فانتحل الاسلام وسمَّى نفسهُ محمداً وارتفعت منزلتهُ واثرى وملك بيتاً كبيراً وتزوج واقتنى الجواري والعبيد والخيول وكان محسوبًا من اتباع المماليك . ولما قُتل المماليك واتباعهم لم يخلص المسيو جان من القتل الاَّ بحيلة فتسلل فرنسا لهُ غير انهم سلبوهُ امواله وصادروا كل مقتنياتهِ فتفرق عنهُ نساؤهُ وجواريهِ واصبح فقيراً فاضطر ان ينزوي في حارة الاقباط و يرتزق من تلك الحانة و بيع الخمر للافرنج « والمرقي » البلدي لليهود والاقباط والبوظة للبرابرة . ولما تكمل عملهُ بالنجاح اتى بالخمور الفاخرة من مالطة وسورية وجزائر اليونان واشتهرت حانتهُ حتى كانت مجتمعاً للافرنج و بعض العامة والخاصة من المسلمين وهؤلاء كانوا يدخلون اليها سرًّا . فهناك تعرفت بالمسيو جان ولم اكتم عنهُ احوالي . ولما شاورتهُ في اموري المنزلية اجاب

من الصعب ان تقيم في مصر فريداً وفي منزل خصوصي من غير ان تبذل نفقات طائلة . فيجب أن يكون عندك خدم كثيرون ان شئت ان تكون في راحة وذا منزلة مكرمة في اعين القوم . ولكل خادم مهنة خاصة لا يتعداها الى سواها فالطباخ لا يطبخ الطعام الاَّ اذا كان

حوله غلمان يساعدونه في غسل الآنية والطباق . وكذلك « السفرجي » لا يعمل عملاً آخر سوى ترتيب السفرة والخادم لا يشتغل بغير تنظيف البيت وترتيبه . والبواب لا ينتقل من الباب وكل منهم يأنف العمل في مهنة غير مهنته . فهم كسالى لا فائدة منهم . فالافندي او صاحب الوجاهة والمنزلة لا يكون زجيهاً الاَّ اذا استخدم كاتباً يدعى كاتب السر . وقهرمانًا لداره يدعى « الخازندار » وحاملاً للشبق ومنظفاً للشبقات والزاجيل يدعى « الشبقجي » . ووكيلاً لاسطبله يدعى « السحدار » وسائساً لخيوله يرأسه « السراج باشي » . وصانعاً للقهوة يقال له « قهوجي باشي » . وسقاءً وحماره ياتي بالماء من النيل بالقرب . وذلك عدا طائفة كبيرة من الطباخين والخدم والبوابين والخادمات والجواري داخل دار الحريم وشلك لا يستغني عن طباخ مع مساعده وخادم وقهوجي وبواب

قلت وكم يبلغ مرتب هؤلاء في اليوم . قال لا اقل من ثلاثين او اربعين غرشاً ويجب ان تحسب مثلها ثمن المأكولات . فقلت هذا مبلغ باهظ اكثر مما ادفعه في الفندق . فقال لا ريب في ذلك وقد لا يطيب لك الطبخ المصري . فقلت ساعود ننسى اكله . فقال ويجب ان تناقش الخادم في الحساب لئلاَّ يسرقك وهو يشتري الحاجيات المنزلية . فقلت لا بأس ساتوصل بهذه الواسطة الى فهم اللغة العربية . فارجو منك ان تنتخب لي هؤلاء الخدم . فقال ساهتم بذلك ولكني لا اكفل امانتهم واخلاصهم . فقلت وهل هم لصوص . فقال كلاَّ لا لصوص في مصر لان اللصوصية مقترنة غالباً بالجراءة وهذه الصفة لا وجود لها هنا . ولكن هؤلاء الخدم يكتسبون منك بعض دريهمات في مشترى الحاجيات من السوق

رأيت من خلال هذا الكلام ان المصري المسكين محتقر في نظر الاوربيين عموماً حتى من الطبقة الواطئة من الافرنج . وللاوربي سلطة ولو وهمية على المصري كما ان للاتراك سلطة فعلية قاسية عليه وقد اذله نير الاستعباد الطويل منذ العصور الخالية فاصبح عبداً لحكامه

— السخرة —

خرجت من خانة جان واجتزت ساحة الازبكية قاصداً الذهاب الى فندق دومرج في حي الافرنج ومررت بالقصر الذي جعله بونابرت مسكناً له ولم يزل قائماً وحوله حديقة واسعة محاطة بسياج من الصبير (التين الشوكي) واشجار الجميز . وفي تلك الحديقة قتل الجنرال كليبر يد غادر اثيم . وبالقرب من هذا القصر المعهد العلمي الفرنسوي المصري حيث

كان يجتمع اعضاء البعثة العلمية . ولم يزل هذا الاثر باقياً الى الآن[1] . وبالقرب من الحديقة بحيرة الازبكية تمتلئ ماء في ايام الفيضان و ينتقل الناس من جهة الى اخرى بالقوارب الكثيرة الراسية على ضفاف البحيرة . وقد بدأ الحاكم بردم جزء كبير منها وجعله حديقة زرع فيها شجر الجيز وغيره . ورأيت عند مروري من هناك مئات من الفلاحين المصريين يعملون في ردم البحيرة ونساؤهم وبناتهم ينقلون الاتربة في قفات واكثرهن لا يستر اجسامهن سوى قميص ازرق . اما البنات الصغار والغلمان من سن الثانية فما دون فعراة الاجسام كما يرون على ضفاف النيل في القرى . ورأيت الملاحظين على العمال من المصريين ايضاً وقوقهم المقتشون وكلهم من الاتراك وبايديهم اسواط من الجلد واذناب الثيران يقرعون بها ظهور الملاحظين . وهؤلاء يحملون بايديهم عصيًّا من الخيزران يقرعون بها ظهور العمال الفلاحين انتقاماً من قارعيهم ! ! وكل هؤلاء الملاحظين والمقتشين تحت سيطرة مفتش عام من ضباط الجهادية الاتراك وكان متردياً بلباس تركي وعلى رأسه طربوش احمر واسع وعلى جنبه سيفه وفي نطاقه الجلدي الخناجر والفدّارات . ويحمل في يده سوطاً طويلاً يلاحظ العمل كمهندس ويجدّ في تنشيط المقتشين وينتهرهم باللغة التركية . ولما رآني في هذا المفتش واقفاً امام هؤلاء العمال المساكين اندب سوء حظهم واعطف راثيًا لحالة البنات والغلمان الصغار واكثرهم لم يتجاوز كثيراً من الفطام دنا مني وحياني باللغة الفرنسوية الفصحى . فدهشت كثيراً وعلمت من اثناء الحديث انهُ من مواطني الذين كانوا ضباطاً في الحملة وقد استطوا ولم يشاءوا ان يفارقوا نساءهم المصريات فدخلوا في خدمة الباشا وتزيوا بزي الاتراك اصحاب السلطة وتخلقوا باخلاق اهل البلاد . ولما تم التعارف بيننا قلت لهُ :

لِمَ تسخرون هؤلاء النساء مع اطفالهن وبناتهن في هذا العمل الشاق ؟ فاجاب لسن مسخرات . فرجالهن يأتون بهن ليشتغلن معهم فيأخذون الاجرة مضاعفة فاجرة المرأة غرش في اليوم والبنت والغلام نصف غرش واما الاجرة العامة لكل عامل فغرش واحد . قلت اني ارى بعض العمال مقيدين بالسلاسل في ارجلهم فقال هؤلاء هم المتوانون الكسالى المتشردون الذين لا يأتون الى العمل من تلقاء انفسهم فنضطر ان نلتقطهم من الشوارع والقهوات . قلت وكيف كانوا يعيشون اذاً فقال من سرقة الاثمار والذرة والباذنجان

(١) قصر يونابرت والمعهد المشار اليه كان في المكان القائم فيه الآن محل صيدناوي في ميدان الخازندار وما اليه من الابنية في جهة محل فرانسيز

من الغيطان فشيء قليل منها يكفيهم قوت يومهم . وفي الليل يؤمون القهوات ليسمعوا قصص الزير وعنترة ثم ينوسدون التراب . فالباشا احسن عملاً في تحقيرهم وتعويدهم العمل وزد على ذلك اننا ندفع لهم الاجرة كفيرهم ولكننا لا نصرفهم ليلاً . قلت وكيف تجمعون العمال عند ما تحتاجون اليهم . فقال عندما يريد سعادة افندينا اصلاح طريق او ردم بحيرة او بناء قصر يأمر فصيلة من الجنود فيحصرون حيًا او شارعًا من كل جهاته على غفلة ويقبضون على كل من يقع تحت ايديهم ويأخذونهم للعمل قلت وهل يأخذون كل من وقع تحت ايديهم من المارة . قال نعم ولا يطلق الضابط سبيل احد منهم الاَّ الاتراك والافرنج والباقون فمن كان منهم تاجراً او وجيهاً فيشتري نفسهُ ويدفع مال السخرة . اما الفلاحون والفقراء فيساقون الى العمل مكرهين باجرة مقررة ولا يصرفون الاَّ اذا انتهى الردم او الهدم او البناء وربما دام سنة او اكثر . وكانت السخرة قبلاً امتيازاً لكل سيد او امير اما الآن فقد الغى سعادتهُ هذا الامتياز

— الراقصون والراقصات —

تناولت الغداء في الفندق وخرجت الى قهوة في الموسكي ثم ذهبت عند المساء الى مكان غناء قريب من القهوة . ورأيت اول مرة رقص الغوازي وسمعتُ غناء « العوالم » وكنت اود ان اصف هذا المكان لكثرة ما رأيتهُ عنهُ في كتب السياح من قبلي . فقد صوَّروهُ مكانًا فسيحًا مفروشًا بمقاعد الدمقس والحرير وجدرانهُ زاهية مزينة بصور النساء العاريات والحوريات وعلى رفوفهِ آنية الصيني والخزف الثمينة والمصابيح العربية كمصباح علاء الدين الموصوف في كتاب الف ليلة وليلة . فلم اجد في تلك القهوة سوى جدران مبيضة بالجير عليها رسوم جمال ونخل وسفن ناشرة اشرعتها ليس فيها شيء من الرواء . وعلى رفوفها اسرجة زيتية ينتشر دخانها الكثيف في الفضاء ومقاعدها من الخشب والجالسون عليها يدخنون بالشبقات او النارجيلات المركبة من جوز الهند وقصب الغاب . وصاحب المكان يدير عليهم القهوة من حين لآخر في فناجين صغيرة من نحاس . وقد رأيت هناك الفلاح بزعبوطهِ الازرق والقبطي بقفطانهِ الاسود والبدوي بعباءتهِ المخططة وعلى رأسهِ الكوفية والعقال والعربي بشحمهِ الابيض والتركي بسراويلهِ الواسع وطربوشهِ الاحمر وخناجرهُ في منطقتهِ . اما الافرنج من مالطيين وارروام وايطاليين فجالسون ناحيةً تقدم لهم القهوة محلاَّة بالسكر

وكان في صدر المكان منصة مرتفعة جلست عليها العوالم والراقصات وقد بهر نظري زيناتهنّ وحلاهنّ اللامعة على رؤوسهنّ وصدورهنّ من القطع الذهبية . وقفن على المسرح يرقصن رقصاً غريباً مستهجناً خليعاً تهز فيه الاعناق والارداف والمعاطف واوساطهنّ عارية تحدلى حولها شرائط القصب المطقة في اطرافها الجلاجل تأتلف رناتها مع رنات الصنوج الصغيرة في اصابعهنّ ومع حركات الرقص ونغمات الزمر والطار والدف . ورأيت راقصتين زججنا الحواجب والعيون وقد دقت خصورها واعازها الجمال مسحة . وفيما انا احدق فيها رايت الشعر في عوارضهما وعلمت بعد ذلك انهما شابان مخنثان لا فتاتان . ولما انتهى دور الرقص نزل احدهما عن المرسح ودار بين المتفرجين يجمع « البقشيش » منهم فكان بعضهم يلقي في يدهِ بعض بارات يردفها بعبارات غزلية . فلما دنا مني وضعت في يدهِ قطعة نقود وحولت وجهي عنهُ اشمئزازاً وانفة . وقيل لي ان الراقصات والعوالم والغوازي كن يظهرن قبلاً في اماكن اللهو والغناء ولكن الوالي الباشا امر ان لا يظهرن على المراسح العمومية ونفى اكثرهن الى اسنا فاقتصرن على الغناء والرقص في البيوت والسرايات عند اقامة الاعراس والافراح فاضطر اصحاب القهوات ان يبدلوهنّ بغلمان مردٍ يتخذون هيأة الغوازي في قصر شعورهنّ وزيناتهنّ وملابسهنّ ويقلدون رقصهنّ الخليع . وهم معروفون في مصر باسم « الخوّلات » كما ان المغنيات معروفات باسم « العوالم » جمع عالمة والراقصات باسم الغوازي جمع غازية .

— المأتم —

رجعت الى منزلي وانا افكر في معيشتي البيتية المقبلة وعزمت ان اصرف ترجماني عبد الله اقتصاداً بعد ان عرفت الطرق والشوارع وتعلمت بعض كلمات عربية امكن بها من السؤال والاستفهام والاهتداء في المسير . وعند وصولي الى منزلي رأيت جمعاً من الخدم والطباخين كان مواطني المسيو جان قد ارسلهم اليّ لاختار من بينهم من كان صالحاً لخدمتي فلقيتهم جالسين في صحن الدار يدخنون وقد وزع عليهم خادمي القهوة ورأيت اليهودي يوسف التاجر جالساً في قاعة الاستقبال وبين يديهِ النارجيلة يدخن . اما ترجماني فكان نائماً فايقظتهُ ولما رآني صاح بي :

كنت بانتظارك منذ الصباح . فقلت لهُ وماذا تريد مني ؟ . قال لقد عملت سجناً وقلقاً في الحارة والجيران حولك يتضررون منك يريدون ان يشكوك الى مدير الضبط . قلت

ولماذا . قال لصعودك الى السطح ورصوصتك على نساء الجيران . قلت الم تقل لي انهُ ليس في صعودي الى السطح ليلاً من حرج . قال نعم ولكنك تصعد باكراً وتلبث الى ما بعد شروق الشمس فاضطرت صاحبة البيت ان ترسل فعلة يبنون جداراً عالياً في السطح يحجب عنك حريم الجيران وهاهم الآن يعملون على حسابك . فصعدت الى السطح مع عبد الله فرأيت بعض الفعلة والبنائين يبنون جداراً من الطوب عند واجهة تطل على حديقة صغيرة ومنزل مفتوحة نوافذهُ وقال لي . في هذا البيت تسكن « هانم » اي سيدة محصنة وهي التي تشكو منك . وقد تهددت المرأة القبطية صاحبة بيتك بان تشكوها الى القاضي لانها اجرت بيتها لرجل اجنبي يصعد الى السطح ويشرف على البيوت وهذا محرم في الشرع فاضطرت القبطية ان تأتي بالبنائين ليرفعوا جداراً بين البيتين . قلت ولكني لم التفت قط الى هذه الجهة ولم ارَ هذه « الهانم » . قال ولكنها رأتك واقفاً في الصباح وهذه حجة كافية للشكوى . قلت وكم عمر هذه السيدة . قال هي امرأة ارملة في الخمسين من عمرها . قلت عجباً في الخمسين ونقول انها تتذمر وتأنف من النظر الى شاب اجنبي

فاشتد بي الغيظ واقبلت نحو الفعلة ودفعتهم بحدة وغضب وهدمت بيدي ورجلي ما رصوهُ من الطين والطوب وسقط بعضهُ على حديقة جارتي الارملة . فوجم البناؤون وتباعدوا عني خوفاً من غضبي . والعادة ان الوطنيين لا يجسرون على مقاومة رجل افرنجي او تركي فطردتهم في الحال . اما الترجمان واليهودي فلم يجسرا ان يعترضاني . ثم نزلت ودعوت الخدم الذين ارسلهم لي جان فانتقيت منهم طباخاً وخادماً وصرفت الباقين وكان الطباخ يدعى مصطفى وقد رأيت على وجههِ ملامح الذكاء والنشاط واتفقت معهُ على الاجرة وهي غرش ونصف في اليوم على ان يطبخ لي على الطريقة المصرية و يشتري الحاجات من السوق . واما الخادم فجعلتهُ مساعداً لهُ

ثم جلست على المقعد مع الترجمان و يوسف ودار بيننا الحديث عن شؤون مختلفة الى ان قرع الباب وقيل لي ان شيخ الحارة قادم ليكلمني فاذنت لهُ في الدخول . فقال لي اني اسأت بطردي الفعلة وانهُ مسؤول عني لدى ولاة الامور وربما اصابهُ سوء لانهُ اسكن رجلاً افرنجياً غريباً بين منازل العائلات وان « الهانم » سترفع شكواها عني الى القاضي لاني اكشف عليها وقد القيت الطوب في ارضها . فاعتذرت لشيخ الحارة عن حدتي وجهلي لعادات البلد ووعدتهُ بان لا اصعد الى السطح في النهار واني مستعد لان اعوض الضرر الذي حدث بسببي . فقال لي حسناً تفعل و بذلك ترفع عن عاتقي المسئولية . فقلت لهُ ماذا

ترى ان اقدم لها على سبيل العوض قال ارسل امرأتك تعتذر لها ونقدم لها من قبلك غزلية قماش وبضع مناديل حريرية او شيئاً آخر على سبيل الهدية . قلت يا للغرابة ولكنك تعلم اني لست متزوجاً . فاظهر الدهشة والاستياء وقال ما شاء الله ألم تأت بامرأة حتى الآن . اعطيتك مهلة اسبوع ولم تفِ بوعدك .... آه ما اسوأ حظي فاذا كنت مصرّاً على عدم السكنى مع امرأة فيجب ان تخرج من هذا المنزل وتذهب الى فندق او خان

فجعلت ألاطفهُ بالحسنى الى ان سرّي عنهُ ورجوت منهُ ان يعطيني مهلة ثلاثة أيام ايضاً ففعل . ولما خرج من عندي قصدت ان اذهب الى قنصل فرنسا اشاورهُ في امري

— قنصل فرنسا في القاهرة —

كنت قبل سفري من باريس قد اخذت من بعض الاصدقاء وارباب الوجاهة في الحكومة كتب توصية الى كثيرين من قناصل الشرق في مصر وسوريا احدها كتاب الى قنصل فرنسا الجنرال في الاسكندرية المقيم الآن في القاهرة للاستعانة بهم عند الاضطرار الى المساعدة والحماية . ولم اشأ عند وصولي الى القاهرة ان ازور القنصل ما دمت لست في حاجة الى مساعدته . وقد وطدت العزم ان اقيم فيها كمصري شرقي خلافاً لعادة غيري من السياح الذين حالما يطأون ارض هذه المدينة يلبسون الخز ملابسهم ويتقلدون اوسمتهم ويزورون قناصلهم فيحجبونهم في الاسواق والطرق بالتراجمة والادلاء والقواصة «والمجرين» امامهم وخصوصاً السياح الانكليز . فانك تراهم سائرين في القاهرة باثوابهم الرسمية بحمدي الشعور وعلى رؤوسهم القبعات البيضاء يجولون للتفرج على الآثار والجوامع يابهة كانهم سائرون في موكب ولا يمكنهم بهذه الطريقة ان يختلطوا بحرية مع المصري والعربي والصعيدي والتركي ويأنفون من الدخول الى قهوة او حانة او ان يجلسوا مع الشرقي لمعرفة اطوارهِ واخلاقهِ ويحسبون هذا الاختلاط تدنياً وضعةً . فهل يؤمل من هؤلاء السياح ان يدركوا شيئاً من اخلاق القوم وعاداتهم غير ما يرون من الظواهر . فاذا كتبوا فعلى غير هدى وحقيقة

اخذت كتب التوصية من حقيبتي وذهبت الى القنصل فلما عرفني رحّب بي ودعاني للغداء عندهُ وكان على مائدتهِ يومئذٍ اثنان من مواطنيَّ وهما الدكتور كلوت بك طبيب الباشا وحكيم المستشفى . والمسيو لوبرت مدير الاوبرا في باريس سابقاً وقد بقي بعد الحملة الفرنسوية في القاهرة وجعلهُ محمد علي باشا كاتب التاريخ عندهُ « مؤرخ الوقائع والحوادث المصرية »

وكان بيت القنصل بجوار بيت الدكتور كلوت بك في حدائق رشيد (درب الجبنة) . والامر الغريب ان هذين الرجلين اي الدكتور والمؤرخ يلبسان الملابس الشرقية على الزي التركي والطربوش الواسع والدامر والقفطان والسراويل وعلى صدر بهما مثلاً الوسامات التركية الممنوحة لهما من الباشا لانهما من اتباعه وهما مقيدان بخدمته وقد منحها لقب بك . وان من يراهما بهذه الهيأة لا يشك انهما سيدان من كبار الاتراك

— الاسلام والرق —

لبثت عند القنصل الى الليل واطلعت عنده على الجرائد التي وردت من فرنسا مع البريد الاخير وعرفت اخبار بلادي وسياستها ولو لم تكن تهمني كثيراً لاني صبوت بكليتي الى المعيشة الانفرادية وصرت مصرياً فلم اعد احفل بالمعيشة الاوربية والاخبار الغربية . وبعد الغداء دار الحديث بيني وبين القنصل عن شؤون مختلفة . وذكر لي حادثة تافهة في حد ذاتها ولكنها اقلقت باله وهي في عرف قسيسي اللاتين قضية معضلة او مشكلة دولية وذلك ان خادماً فرنسوياً من بقايا الحملة خامل الذكر اسلم هو وزوجته لفائدة خصوصية او لسبب آخر فنهض الاكليروس اللاتيني لمقاومتهما وابلغوا شكواهم للقنصل ليرفع هذا « الذل » على زعمهم عن الدين الكاثوليكي . واشتد الخصام والمشاحنة بين قضاة المسلمين وبين اكليروس الافرنج فاولئك كانوا يحرضون هذا الفرنسوي على الثبات . وهؤلاء يقولون له من العار ان تجحد دين ابائك واجدادك . والقنصل في حيرة لا يعلم ماذا يفعل فمن جهة لا يقدر ان يقاوم جهاراً سلطة قضاة الدين في البلاد ومن جهة اخرى لا يشاء ان يثير غضب الاكليروس اللاتيني عليه امثالاً يشكوه الى ملك فرنسا (لويس فيليب وقتئذٍ) ويتهموه بالاهمال في حماية الدين والاخلال بواجباته وهو مندوب من حكومته لحماية النصارى في الشرق . ولكن الرجل الخادم ظل ثابتاً في عزمه وقد اقتنع من كلام الامام اذ قال له « انك خادم وضيع في النصرانية تظل طول حياتك خادماً فقيراً مسلوكاً واما اذا اسلمت فتصير سيداً كريماً . وفي شريعتنا الناس كلهم سواء في الحقوق فالحقير يمكنه ان يترقى بجده حتى يصير اميراً او وزيراً ويبلغ نعيم الدنيا والآخرة » فلما سمعت زوجته هذا الكلام صارت تحضه على الثبات لتلقب « بالهانم » وتلبس الحلى والجواهر وتسير امامها الجواري والعبيد وهي تؤمل ان تطلق يوماً ما من زوجها وتتزوج من سيد عظيم فتسكن السرايات والقصور

وقد وجد القنصل حلاً لهذا الاشكال فانه دعا الرجل وزوجته ليلاً بواسطة القواصة ثم ارسلهما مقيدين تحت جنح الظلام الى مركب في بولاق يقلهما الى الاسكندرية وهما

الآن مسجونان في القنصلاتو هناك الى ان تأتي الباخرة الفرنسوية فيرسلهما الى فرنسا . فاعترضت على عمل القنصل المباني لروح الحرية الفرنسوية وقلت لهُ هل يجيز لك القانون تقييد الحرية الشخصية والدينية . فاجاب نحن في بلاد الشرق حيث لا دستور ولا قوانين للحكومات . وللقناصل السلطة المطلقة فيما يفعلون تبعاً للظروف ولعادات البلاد فيجب ان اراعي حرمة النصارى وعاداتهم واحفظ مركزي فلم ازحلاً لهذا المشكل غير ما فعلت لاني من جهة لا قبل لي بمقاومة شريعة البلاد الدينية ومن جهة اخرى لا اريد ان اثير عواطف المسيحيين والاكليروس اللاتيني عليَّ

وبعد هذا الحديث بسطت للقنصل حالتي المنزلية وقصصت عليهِ ما جرى لي من امر صاحبة البيت والجيران وشيخ الحارة وكيف عزمت على التزوج من فتاة قبطية واستشرتهُ فيما يجب ان افعل تلقاء هذه المصاعب وقلت اني استأجرت منزلاً خصوصياً وهم يطلبون مني اما ان اخرج منهُ واما ان اتزوج او آتي بامرأة تخدمني فقال : لهم الحق في ذلك وهذه قاعدة او قانون متبع في مصر بصرامة وعندهم ان سكنى شاب عازب في منزل منفرد وخصوصاً اذا كان اجنبياً بين منازل العائلات يدعو الى التقولات والشكوك وقد ذكر هذه العادة كل السياح في كتب اسفارهم . انظر كتاب الدكتور كلوت بك عن مصر وتقرير المستر ولم لاين قنصل انكلترا السابق فانهُ عند وصوله الى القاهرة مُنع من السكنى بين العائلات في منزل منفرد واضطر ان يقيم في الفندق حتى وصلت اسرتهُ من انكلترا وهذه العادة عريقة في القدم وقد ذكرها ماليت قنصل جنرال فرنسا في مصر على عهد لويس الرابع عشر منذ مائة وخمسين سنة في كتابهِ عن مصر . فيجب عليك ان تتزوج ان شئت البقاء في منزلك

قلت ولكني لا اريد ان اعقد زواجاً في مصر لا اراهُ صالحاً لي ولمستقبلي وحالتي المالية . ثم اني قد عزمت على مواصلة سياحتي الى سوريا ولبنان . وقد اشار عليَّ ترجماني ان اشتري جارية من سوق العبيد (اجلاَّية) فما رأيك . قال لك الخيار . قلت واذا فعلت هل اخالف القانون الفرنسوي . قال كلا بشرط ان تطلق حرية الجارية اذا اخذتها معك الى فرنسا . وطال الحديث بيننا في هذا الشان واوضح لي القنصل سهولة شراء الجواري وخصوصاً الحبشيات وقال ان كثيرات منهن جميلات يغلب فيهن اللون الفاتح او الخامي وان كثيرين من الاجانب والموظفين الاوربيين في مصر اقتنوا الجواري الحبشيات والنوبيات . وقد اشترى كلوت بك كثيرات منهن بامر الباشا الحاكم ووضعهن في مدرسة الطب وقصر

المستشفى وعلمهن صناعة التوليد وجعل منهن قوابل . وقال لي ان الحكومة لا تمنع الاوربيين من شترى العبيد والجواري . وان عبداً اسود ابق مرة من بيت المسيو لومبرت فشكا امره لذوي السلطة فقتشوا عنه واعادوه اليه . وكنت لم ازل مشيعاً من عاداتنا التركية فدهشت من هذه الانباء المخالفة لروح المدنية الا اني علمت فيما بعد ان الرق في الشرق هو بمثابة التبني عندنا . فالعبيد في قصور العظماء وسرايات الامراء يعيشون في راحة ورفاهية والخدمة المفروضة عليهم ليست بشاقة ولا جائرة وحالتهم عند اسيادهم افضل من حالة الفلاحين المصريين الاحرار الذين يسامون ظلماً وعسفاً ويضربون بالسياط ويسخرون للاعمال الشاقة . وعلمت ايضاً ان الجواري اسعد حالة ومعيشة ورفاهة في قصور اسيادهن من المرأة المصرية التي يبيعها ابوها لزوجها فيقبض مهرها ويحملها الى رجل قاس يسيء معاملتها وربما تركها مع اطفالها تموت جوعاً وتزوج بغيرها

والتفاضل في الشرق مختلف الآراء والمعاملات في حقوق الاسترقاق اذ ليس لها نصوص صريحة في القوانين الاوربية او المعاهدات الدولية . ولكن فضل فرنسا اوضح لي رأيه في هذا الشان بقوله « لا ارى بأساً ببقاء الحالة الحاضرة كما هي عليه الآن اي ان يسمح للاوربيين بشراء العبيد والجواري لاعمالهم التجارية والصناعية . فالقوانين التركية تحرم شترى الاراضي والعقارات وامتلاكها ولكنهم يضطرون الى اقتناء اراض او انشاء معامل لمتاجرهم ومصنوعاتهم باسم غيرهم من الاقباط او السوريين او انهم يلجأون الى حيل شرعية بواسطة ايجارات لمدة طويلة او غير محدودة وفي هذه الحال يضطرون الى استئجار المال والصناع من الفلاحين المصريين او الاهالي وهؤلاء كلهم موسوفون بالكسل فضلاً عن ان الحكام والامراء ومشايخ الحارات مستعدون دائماً اذا احتاجوا الى فعلة في الاشغال العمومية احضارهم من معامل الاوربيين قسراً عنهم واقتيادهم للسخرة . ولا يخفى ما في ذلك من الضرر على متاجرهم واعمالهم ولهذا التجأ اكثرهم الى شترى العبيد للعمل وتكفلوا بالانفاق على مأكلهم وملبسهم ولا سلطة حينئذٍ للحكام على هؤلاء العبيد المملوكين . واذا رأى الاوربي عبداً من عبيده كسولاً او متمرداً فله الحق ان يبيعه او ان يستبدله بغيره

ديتري نقولا